

الإسلام وأوروبا في القرن السادس عشر الحرب والتجارة

شمس الدين الكيلاني

1 - المقاصد المادية

من الممكن القول، إن الأغراض الدينية والاقتصادية والسياسية، قد اندمجت في سلسلة سببية واحدة، فأعطت حافزاً لأسبانيا والبرتغال للتدافع المحموم بلا كلل للوصول إلى المياه الآسيوية الجنوبية - الشرقية للقبض على خيرات الشرق وتوجيه ضربة نجلاء إلى ديار الإسلام، بل «تقاسمت جميع شعوب أوروبا التجارية في المتوسط... عدا البندقية، حلم الوصول إلى كالكوتا - الذي دام مئتي عام - هذا الحلم الذي اختلطت فيه دواعي الاقتصاد والسياسة والدين. فمنذ صلاح الدين الذي استرد بيت المقدس من الصليبيين عام 1187م انتظم عالم الإسلام جاعلاً من مصر قاعدة له، بحيث أصبح كتلة هائلة القوة تصل بين آسيا وأوروبا»⁽¹⁾.

فانتصار صلاح الدين الحاسم، أدى إلى إقرار سلطان المسلمين على منطقة حيوية جداً لعبور التجارة الشرقية إلى أوروبا: الشام ومصر. لذا، توجهت الحملة الصليبية الخامسة (1218 - 1221) إلى مصر ثم (الحملة السابعة) ولكن بدون جدوى، وظلت مصر والشام في حوزة المسلمين.

وبقيت تجارة الشرق الأقصى، بعد مئتي عام من الجهود الصليبية المستمرة،

(1) ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، ترجمة: عبد العزيز توفيق جاويد، وزارة الثقافة، دار المعارف بمصر، 1962، ص 20.

لا يمكن الدخول فيها إلا عن طريق الأراضي العربية - الإسلامية، تلك التجارة التي كانت تدر أعظم الأرباح، وهي من أعظم العوامل الدافعة للتاريخ (...). كما كانت أقوى عامل بمفرده في استشارة التوسع الأوروبي أثناء القرن الخامس عشر⁽¹⁾، ومصدراً لحسد دول أوروبا لأرباحها الطائلة، التي لا ينقطع تدفقها على جيوب البنادقة والمصريين⁽²⁾، إذ إن جميع البضائع التي تمر إلى أوروبا من الهند أو تصدر منها إلى الأخيرة «لا بد من مرورها بالبحر المتوسط، ومصر، والبحر الأحمر... وكان عبور هذا الطريق ممنوعاً في ذلك الوقت إلا على أهل البندقية»⁽³⁾.

وانضم إلى تلك البواعث، التنافس بين البندقية وجنوه، فرجحان نفوذ البندقية، عند القاهرة، أوجد لدى الجنوبيين الدافع القوي الذي لا يهدأ أواره، والذي يحفزهم للخروج من المتوسط وضرب الاحتكار العربي - البندقي⁽⁴⁾.

إنطلاقاً من هذا التنافس، اقترح الجنوبيون، في العقد الأخير من القرن الثالث عشر على الخان (أرغون) صاحب فارس خطة تحويل تجارة الأفايه إلى الخليج العربي، بأن يبنوا أسطولاً يغلق البحر الأحمر أمام تجارة الهند. إلا أن هذا الاقتراح فشل. ولكن جنوه لم تيأس، فلم يكن ثمة وسيلة للرد على قوة الإسلام، واحتكار البندقية، سوى إيجاد طريق بحري آخر⁽⁵⁾.

(1) المصدر السابق، ص 20.

(2) المصدر السابق، ص 20 - 21. وراجع: د. غوستاف لوبون، حضارة الهند، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة دار الإحياء العربي، ط1، 1948، ص 240.

(3) عمر إسكندري وسليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبل الوقت الحاضر، مطبعة المعارف، القاهرة، ط6، 1924، ص 75.

(4) محمد حمدي علي، كتاب الاكتشافات الجغرافية، ط1، المطبعة الجمالية، القاهرة 1913، ص 10.

(5) راجع: عبد العزيز محمود الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، ج1، دار المعارف بمصر، 1969، ص 105 - 106. وراجع أيضاً: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، دار العهد الجديد، مصر، ط1، 1959، ص 333.

وتصاعد حماس الجنوبيين بعد ضرب مستعمراتهم على يد محمد الثاني، في البحر الأسود، ولم يكف الجنوبيون عن العمل حتى تمكنوا، بفضل تأييد إسبانيا والبرتغال لهم من اختراق نطاق احتكار البندقية، وحصار الإسلام بحرياً، وذلك بالوصول إلى المحيط الهندي بالدوران حول رأس الرجاء الصالح، والوصول إلى المحيط الهادي عبر القارة الأمريكية⁽¹⁾.

يضاف إلى تلك البواعث المادية التي حفزت أوروبا للخروج من المتوسط والالتفاف حول ديار الإسلام نحو الهند، افتقاد أوروبا في القرن الخامس عشر إلى المعدن الثمين «ولم تكن النقود كافية.. وتكلمت روايات أسطورية عن كنوز خيالية موجودة في إفريقيا وآسيا⁽²⁾ بالإضافة إلى محاولة التخلص من الرسوم الجمركية الفادحة التي تفرضها السلطة المملوكية على السلع الشرقية»⁽³⁾.

ثم إن مجيء العثمانيين، وسيطرتهم على بلاد البلقان، وضمهم البلاد العربية، حيث ورثوا سلطة المماليك، جعل طريق التجارة الشرقية بيد قوة إسلامية قادرة وفاعلة⁽⁴⁾، هذا الوضع، سيضع أوروبا والمسلمين بقيادة العثمانيين في سباق مع الزمن لامتلاك القوة للفوز في المجابهة الكبرى التي ملأت القرن السادس عشر، علماً أن أوروبا قد ازداد اهتمامها بآسيا منذ زمن بعيد، فبعد الحروب الصليبية الأولى كانت لدى كل من البندقية وجنوه معلومات تفصيلية عن أحوال الهند وتجاريتها، وقد زار الهند في القرن الثالث عشر كثير من الرحالة والوفود الأوروبية كماركو بولو، وأودريك، ومونتي كورفينو⁽⁵⁾.

(1) ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 23.

(2) المصدر السابق، ص 23.

(3) تأليف روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مجلد 4، إشراف مورييس كروزيه، ترجمة: يوسف أسعد داغر، فريد م. داغر، منشورات عويدات، بيروت 1966، ص 422.

(4) عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، مصدر سابق، ص 83.

وراجع: عبد القادر أحمد اليوسف، العلاقات بين الشرق والغرب بين القرنين الحادي عشر والخامس عشر، المكتبة العصرية، بيروت 1969، ص 264.

(5) محمد صالح، تاريخ أوروبا من عصر النهضة وحتى الثورة الفرنسية، بغداد 1981، ص 138.

2 - المقاصد الدينية - السياسية : تطويق ديار الإسلام

إن كل ما سبق ذكره لا يغطي البواعث الأشد إثارة للوجدان والانفعال التي قادت أوروبا لركوب مخاطر المحيطات الغامضة، ولا يكشف ذلك عن العواطف الأكثر جرأة وإثارة، والأكثر تضحية حتى بالحياة نفسها، التي صاحبت الإبحار الطويل نحو الشرق، إنها الروح المتجددة لأوروبا المتحفزة، إنه العراك الدامي، والرهان الذي يستحق كل بذل: تصفية الحساب، وبشكل نهائي، مع الإسلام بتوجيه ضربة قاتلة إليه من الخلف والاستحواذ على خيراته. من هنا، كما يقول روسينييه: «صار هدف أوروبا خلال قرنين كاملين بلوغ آسيا، فالوصول إلى الهند والصين واليابان، واستثمار ما فيها من موارد طائلة، وحمل سكانها على اعتناق المسيحية، والقيام بحركة التفاف على الإسلام، من ورائه، والعمل على سحقه بحيث لا يبقى على الأرض سوى إيمان واحد، وحضارة واحدة، تلك كانت الغاية الأولى، والحلم الأسمى البعيد الذي راود خواطر الأوروبيين بكثير من الإغراء»⁽¹⁾.

إن الأغراض المعرفية (= الكشفية) تتضاءل أمام جبروت المشاعر العدوانية التي تستهدف المسلمين، وأمام السياسات والخطط القتالية ذات النزعات الصليبية الواضحة، على الرغم من أن «بعض المؤرخين غفل عن بواعث (هنري الملاح) . . فادعوا أنه كان يعنى (بحركة الكشف) لذاتها، ولكن الواقع الصحيح يدل على أنه اتجه لهذا العمل للرغبة في إضعاف المسلمين بكل الوسائل التي يستطيعها، وكان أول شيء في نظره، القضاء على نفوذهم في البحار الشرقية»⁽²⁾.

ففي الفاتيكان - كما يشير فيشر - كانت مشروعات البرتغال وإسبانيا تثير أكبر قسط من الاهتمام، لأنها تعطي الأمل بشن هجوم حاسم على المسلمين من ناحية الشرق، في الوقت الذي تتلقى فيه مؤازرة الملوك الشرقيين (التي تحسب أنهم مسيحيون) في حرب صليبية. . . تلك هي (خطة الهند) كما رسمها نقولا

(1) ك. م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 19.

(2) روسلان موسينييه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص 533.

الخامس، منذ وقت مبكر، يرجع إلى عام 1454 في مرسوم بابوي مرسل إلى الملك هنري، تتضمن هذه الخطة، إعداد حملة صليبية تشنها أوروبا الكاثوليكية للقضاء نهائياً على الإسلام، بعد أن يتم تطويقه⁽¹⁾.

ويلاحظ (كيرك) أن جُلّ مآرب (هنري الملاح) كان مواصلة عمل الصليبيين، بمحاولة الالتفاف حول ديار الإسلام، وحصرها من الوجهتين الحربية والتجارية، مع انتزاع تجارة الذهب، وغيرها من حاصلات إفريقيا الغربية من يد المسلمين، ثم الاتصال بما وراء الصحراء الكبرى جنوباً بنجاشي إثيوبيا، والاشتراك معه في مهاجمة المسلمين من الجنوب، والاستيلاء على تجارة الهند، التي كانت، إذ ذاك، أكبر مورد لثراء العالم الإسلامي⁽²⁾.

فالتوسع الأوروبي في آسيا الإسلامية عبر الاكتشافات، كان محاولة للالتفاف حول قوة الإسلام البحرية، فضلاً عن الخروج من إسار المتوسط، وتطويق ديار الإسلام، وكسب المواجهة مع المسلمين، وحسب رأي لوفران، أن الرحلات الاستكشافية لم تبلغ الأهمية نفسها، التي بلغت الرغبة في محاربة الإسلام، تلك الرغبة التي قامت عليها شبه الجزيرة الأيبيرية⁽³⁾. واستند هذا، على انتشار مشاعر صارمة العداء تجاه المسلمين، أعقبت الحروب الصليبية، وحروب (الاسترداد) التي قادها البرتغاليون والإسبان ضد الأندلسيين لاقتلاعهم من هناك، وأصبح القضاء على المسلمين هدفاً مقدساً لهم⁽⁴⁾.

(1) عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص 334.

(2) هربرت فيشر، أصول التاريخ الأوروبي الحديث، زينب عصمت راشد، عبد الرحيم مصطفى، دار المعارف، القاهرة، 1970، ص 79. راجع أيضاً: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني في القرن السادس عشر، كتاب ندوة الثقافة والعلوم، - 4 ط 1، دبي 1991، ص 44.

(3) جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط، ترجمة عمر الإسكندري، مركز كتب الشرق الأوسط، القاهرة، دار الطباعة الحديثة، سلسلة الألف كتاب، 114، ص 97.

(4) راجع: جورج لوفران، تاريخ التجارة، ترجمة هاشم الحسيني، مكتبة الحياة، بيروت، بدون تاريخ، ص 66.

ولعله ليس بالمصادفة، أن ارتبطت حركة (الاكتشافات) بأشد الدول عداً للمسلمين والعرب: البرتغاليون والإسبان، الذين أصبحوا ورثة التقاليد الجنوية، وتناولوا منهم رسالة اكتشاف طريق آخر بديل للقديم «وكانت الروح الصليبية، لم تبق فيها جذوة الحياة متقدة فحسب، بل ازدهرت أيضاً مكتسبة قوة على قوتها... ولأن (الإسلام) لدى الشعوب الأيبيرية كان يمثل قوة على الأبواب إبان القرن الخامس عشر والسادس عشر، صار الأيبيري محارباً صليبياً بحكم الضرورة»⁽¹⁾.

تجمعت في شخصية هنري الملاح (1394 - 1460) كل المقومات الممكنة لاستنفار صليبي جديد، فهو الابن الثالث للملك يوحنا الذي استرجع قشتالة من العرب، وتمتلىء نفسه حقداً على الإسلام، ويتلبسه طوال حياته هاجس وضع خطة استراتيجية كبرى للالتفاف حول ديار الإسلام، تحمل العالم المسيحي إلى المحيط الهندي، ويدخله يقين مطلق بأنه تلقى أمراً من الله لأداء هذه المهمة المقدسة⁽²⁾.

بدأ هنري مهمته باكتشاف شاطئ إفريقيا إلى الجنوب من مراكش بغية الاهتداء إلى مملكة مسيحية أسطورية، هي مملكة الخوري يوحنا، والتعاون معها لضرب مسلمي مراكش من وراء، فأسس مدرسة ملاح، وبلغ الرأس الأخضر 1445، وخط الاستواء 1471، ورأس الرجاء الصالح 1488 «فكان عمله امتداداً فعلياً للحروب الصليبية... ولم تكن فكرة مهاجمة ديار الإسلام من وراء غريبة كذلك عن نزول الإسبان إلى الحلبة، بعد سقوط غرناطة، وقد حركتهم كلهم أخيراً: ضرورة الرسالة والرغبة في هداية كافة الشعوب المجهولة إلى الدين الحقيقي»⁽³⁾.

فقد كان الإسلام وحده، هو العدو اللدود للأيبيري، ولا بد من قتاله في كل مكان «وسيطل الشيء الكثير من تصرفات البرتغاليين في آسيا غامضاً، لا سبيل إلى

(1) راجع: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص 333.

(2) ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 24.

(3) المصدر السابق، ص 25.

تفسيره، ما لم تذكر هذه الحقيقة على الدوام⁽¹⁾.

هكذا، تدافع الإسبان والبرتغاليون، يحدوهم نفس الهدف: الوصول إلى المحيط الهندي، سالكين سبيلين مختلفين، الإسبان اتجهوا غرباً، والبرتغاليون اتجهوا جنوباً ثم شرقاً، تُوحد ما بينهم أحقادهم الدفينة، وخططهم المُعلنة ضد المسلمين.

وأثناء تقدمهم وتوغلهم في مغامرتهم البحرية، اختلطت المسائل في ذهن ممثلي أبطال اللعبة الرئيسيين، في مسرحية (الاكتشافات) إلى الدرجة التي بدت فيها الثروة، أو الذهب ليس هدفاً بحد ذاته، إنما وسيلة لإعداد الحرب (المقدسة) ضد الإسلام. ف (البوكرك) أشهر قادة المغامرة البرتغالية في البحار الشرقية، يقول في خطابه إلى جنده، بعد وصوله (ملقا): «إن خدمة جلييلة سنقدمها لله بطردنا العرب من هذه البلاد، وبإطفائنا شعلة شيعة محمد، بحيث لا يندلع لها بعد ذلك لهيب... وإنني على يقين أننا لو انتزعنا تجارة (ملقا) من أيديهم لأصبحت كل من القاهرة ومكة أثراً بعد عين⁽²⁾.

سنسمع أقوالاً مماثلة على لسان أبطال الرحلة الإسبانية، فهذا (كولومبس) الذي يقول عنه (تيدوروف) «هو دون كيخوت من نوع مختلف عن زمنه بعدة قرون، يطمح إلى تجهيز حملة صليبية لتحرير القدس»⁽³⁾ لا يكل عن التأكيد، في يومياته، على أن الحصول على الذهب ليس له هدف سوى المساعدة في تحرير بيت المقدس... ويكشف في يومياته لعام 1492، عن أمله في العثور على الذهب «وبكميات كبيرة حتى يتسنى للملكين، خلال ثلاث سنوات، الاستعداد والاتجاه إلى فتح الديار المقدسة». ويقول في مكان آخر: «عندما بدأت الاستعدادات لاكتشاف جزر الهند الغربية، كان ذلك بقصد مناشدة الملك والملكة، عاهلينا، اتخاذ قرار بإنفاق الموارد التي يمكن أن ترد إليهما من

(1) روسلان موسيني، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص 422.

(2) ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 25.

(3) المصدر السابق، ص 48.

جزر الهند الغربية على فتح القدس»⁽¹⁾.

وفي رسالة من كولومبس إلى البابا يوضح بكل جلاء الطابع الصليبي لأهداف رحلاته: «لقد جرى الاضطلاع بهذه المهمة بقصد استخدام ما سوف يتم كسبه منها في رد الديار المقدسة إلى الكنيسة المقدسة» ويتابع دون أن ينسى أن يتوجه بكلامه إلى الله: «أتمنى من ربنا أن يهبني المقدرة على نشر اسمه المقدس، وإنجيله في أرجاء الكون»⁽²⁾. فانتصار المسيحية العالمي، ذلك هو الدافع الذي يحرك كولومبس، كما يقول تيودورف. وظل يُمنّي نفسه حتى وفاته بأن ما اكتشفه ما هو إلا الهند «وبقي مقتنعاً حتى وفاته وبعد رحلاته الثلاث بأنه وصل إلى الهند»⁽³⁾.

من هنا يأتي تقدير الشناوي في مكانه، حيث تثبت الأقوال، وأيضاً الأفعال البرتغالية في البحار الشرقية «إذ كان البرتغاليون يعتزمون تنفيذ مخطط صليبي مسرف في وحشيته، وهو دخول البحر الأحمر واقتحام المسجد الحرام، حيث الكعبة الشريفة، ثم مواصلة الزحف منها إلى المدينة المنورة لنش قبر الرسول، ثم الزحف إلى تبوك، ومنها إلى بيت المقدس»⁽⁴⁾.

3 - فاتحة محاولة تطويق ديار الإسلام (= الاكتشافات)

من الممكن القول إن البرتغاليين والإسبان استفادوا من كتب الرحالة والجغرافيين العرب أمثال الإدريسي والمقدسي والمسعودي وابن بطوطة... ومن الإضافات (التقنية) التي حققها المسلمون على الإبرة المغناطيسية، ما يعرف باسم وردة الرياح لمعرفة اتجاه الرياح ومصدر هبوبها.. حيث

(1) تزفيات تودوروف، فتح أميركا، مسألة الآخر، ترجمة بشير السباعي، سينا للنشر، القاهرة، ط1، 1992، ص 17.

(2) المصدر السابق، ص 17.

(3) المصدر السابق، ص 18.

(4) جورج لوفران، تاريخ التجارة، مصدر سابق، ص 67.

انتقلت إلى أوروبا أثناء الحروب الصليبية، كما اقتبسوا ربع الدائرة الكوادرنط، والخرائط والجداول الفلكية، وخطوط العرض والانزياح⁽¹⁾.

ويبدو أن القول بنظرية كروية الأرض، وهي نظرية عرفها الجغرافيون العرب عن الإغريق، بطليموس وغيره (راجع المسعودي، مروج الذهب، الجزء الأول، ص 86/91) كانت حافزاً على قيام بعض المغامرين من أهل الأندلس برحلات عبر المحيط دون أن يتزودوا بخرائط ملاحية أو بآلات تعين الاتجاه... فمن المعروف أن آلة البوصلة لم يعرفها العرب إلا في القرن الحادي عشر الميلادي⁽²⁾.

وكان لليهود دور كبير في نقل المعلومات الجغرافية العربية - الإسلامية إلى المسيحيين في الأندلس، وأكثر من مصدر يؤكد أن البرتغاليين استعانوا بابن ماجد للإبحار شرقاً⁽³⁾.

بعد أن تم لهم تصفية الوجود العربي - الإسلامي في شبه الجزيرة الأيبيرية، اندفع كل منهما، من موقعه: البرتغال، الإسبان، مباشرة نحو شواطئ شمال إفريقيا العربية بقصد الغزو والتوسع، كاستمرار لمعركتهم مع العرب - المسلمين في الأندلس.

إحتل الإسبان عدة نقاط مركزية على شاطئ المغرب العربي الكبير: مليلة 1497، وهران 1509، والجزائر، ثم طرابلس 1510. وأقام البرتغاليون في مطلع

(1) عبد العزيز محمود الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2، القاهرة 1980، ص 862.

(2) راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 48/49. راجع أيضاً: جورج حداد، بسام كرد علي، مختصر تاريخ الحضارة الغربية في الأزمنة الحديثة، ط2، الآداب هاشمي أخوان، دمشق، بدون تاريخ، ص 17. حيث يقولان: «إن اختراع البوصلة الذي نقله العرب إلى بلاد الغرب، والاعتقاد بكروية الأرض ساهم في حركة الاكتشافات».

(3) عبد العزيز السالم، أحمد مختار العبادي، تاريخ البحرية الإسلامية في حوض المتوسط، مؤسسة شباب الجامعة، ج2، 1993، ص 189.

القرن السادس عشر بين طنجة وأغادير مجموعة من المراكز التجارية للمتاجرة مع الداخل، ولحماية تموين الخطوط البحرية من جهة ثانية.

وفي الوقت الذي اتجهت جهود الإسبان غرباً للوصول إلى المحيط الهندي، استمر الملاحون البرتغاليون باندفاعهم جنوباً على الشواطئ الإفريقية. وقبل رحلة (فاسكو دي غاما) البرتغالية بخمس سنوات، توصل كولومبس - الذي يعمل لصالح إسبانيا - إلى جزر الأنتيل بادئاً سلسلة (الاكتشافات) التي أدت إلى معرفة العالم الجديد، أي أمريكا⁽¹⁾ ولكن مغامرة البرتغاليين، بدأت قبل الإسبان بزمان طويل، فمنذ احتلالهم سنة 1415، توالى فتوحات البرتغاليين، حتى بلغوا نهر السنغال، والرأس الأخضر، ثم وصلوا إلى ما وراء الصحراء إلى غينيا، التي كانت وقتئذ سوقاً عظيمة للذهب الوارد من (تمبكتو)، وهناك افتتحوا تجارة الرقيق، التي كان من نتائجها اعتناق هؤلاء للمسيحية⁽²⁾.

ويشير (ديورانت) إلى أن هناك فكرة ملحة، كانت تراود هنري الملاح، هي أنه ربما يقود نهر السنغال شرقاً إلى منابع النيل، وإلى بلاد إثيوبيا المسيحية، فيستطيع أن يفتح طريقاً مائياً عبر إفريقيا من المحيط الأطلسي إلى البحر الأحمر، ومن ثم إلى الهند، فيحطم الاحتكار الإسلامي لتجارة الشرق، ويحصر مصر من شمال إفريقيا، ومن الجنوب بدول مسيحية⁽³⁾.

قدم البابا نقولا الخامس نفوذه الأدبي لإغراء البحارة للانخراط في سلك بحارة (الكشوف) بوعدهم بالعفو في (يوم الحساب)، كما منح (هنري

(1) راجع: عبد العزيز محمد الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، مصدر سابق، ص 101.

(2) جورج حداد، بسام كرد علي، مختصر تاريخ الحضارة الغربية، مصدر سابق، ص 19.

(3) راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 55. راجع أيضاً: ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السادس، ترجمة عبد الحميد يونس، ص 54. حيث يقول: «كانت أول نتيجة لجهود هنري، هي افتتاح تجارة الرقيق... وأبحرت سفنه لتتصرّ الأهلين في الظاهر، لتحصل على الذهب والعاج والعبيد في الواقع».

(الملاح) الحق في أن يحتل ويُخضع ما يشاء من الشعوب التي لا يسودها حكم المسيح، وأن يمخر البحار اللازمة للقضاء على انتشار (طاعون الإسلام)⁽¹⁾.

وفي عام 1454، تلقى هنري من البابا نيقولا الخامس، تفويضاً على شكل مرسوم جاء فيه: «إن سرورنا لعظيم أن نعلم أن ولدنا هنري أمير البرتغال، إذ يترسم خطى والده العظيم الذكر يوحنا. . . قد اندفع باسم الله إلى أقصى البلاد وأبعدها عن مجال علمنا، كما أدخل بين أحضان الكاثوليك الغادرين من أعداء الله وأعداء المسيح مثل العرب الكفرة (.. .) فإذا تم على يديه اختراق المحيط ملاحاً حتى بلاد الهند. . . فإنه سيتمكن من حملهم على النهضة لبذل العون لمسيحيي الغرب على أعداء الدين وستصبح جميع الفتوح تحت سيادة الملك ألفونسو»⁽²⁾.

بتمكن هنري من الحصول على هذا (المرسوم) فإنه يمتلك ما يُعد في القرن الخامس عشر حقاً قانونياً مطلقاً، والشيء الوحيد الذي يبرز بوضوح من هذا المرسوم، والذي سيكون له أثر قوي في السياسة الدولية خلال المائة سنة اللاحقة «هو المزج بين الدافع الروحي (= الصليبي) إلى فتح الأراضي (الوثنية) من أجل المسيح، وبين الحمية المتعصبة بالدعوة إلى توجيه الضربات إلى جذور الإسلام بمهاجمته من الخلف»⁽³⁾.

واصل جون الثاني (1481 - 1495) جهود هنري الملاح للإبحار نحو الهند، فاكشف في عهد (بارتلميو دياز) رأس الرجاء الصالح 1487، بعدها، من ميناء (رستلو) أبحرت السفن، مسلحة بالمدافع، وتحمل على ساريتها علماً رُسم عليه صليب، وهما الرمزان اللذان اتخذتهما القوة الجديدة الزاحفة نحو الشرق»⁽⁴⁾.

(1) ول ديورانت، قصة الحضارة، مصدر سابق، ص 97.

(2) راجع: عبد العزيز محمود الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، مصدر سابق، ص 94.

(3) ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 27 - 28. راجع أيضاً: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 53.

(4) ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 29.

في هذه الأثناء، عام 1492 أبحر خرستوف كولومبس غرباً بأمل الوصول إلى الهند، مستنداً على اعتقاده بكروية الأرض فوصل إلى إحدى جزر الهند الغربية عام 1492، فتوقفت (الاكتشافات) البرتغالية، بانتظار أن يتضح لهم أن طريق كولومبس ليس أقصر من طريق الدوران حول إفريقيا⁽¹⁾. بعدها، وصل (فاسكو دي غاما) إلى رأس الرجاء الصالح عام 1497 ومن هناك تابع طريقه ليصل إلى ساحل ملابار 1498 في المحيط الهندي، مفتتحاً عهداً جديداً في التجارة الشرقية، وفي علاقة أوروبا مع الإسلام والعالم.

ولأن كل شيء صار، حسب ظنهم، في متناول اليد، أبرمت معاهدة ترود سيسلهاس (سيسلاس) في عام 1494، حدد فيها كل من البرتغال وإسبانيا خطأً وهمياً يقع على الغرب من جزر الرأس الأخضر جعلاه الحد الفاصل بين ممتلكاتهما. وحظيت بمباركة البابا اسكندر السادس، وستضيق بها الحكومات البروتستانتية لاحقاً، وخاصة الإنجليزية والهولندية⁽²⁾.

ساعة وصول (دي غاما) إلى المحيط الهندي، غدت الخطة الاستراتيجية المُعدّة لإخماد قوة المسلمين، ومصادرة تجارتهم، المنهل الأكبر للسياسة البرتغالية في الشرق لمدة تقرب المئة عام⁽³⁾، وكانت نتائج (المغامرة) البرتغالية أكثر حيوية لأوروبا، على مدى قرن كامل من تلك التي نجمت عن اكتشاف الإسبان لأمريكا⁽⁴⁾.

(1) راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 60. وراجع: بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 29.

(2) عمر إسكندري، وسليم حسن، تاريخ مصر من الفتح العثماني...، مصدر سابق، ص 76. وراجع: محمد حمدي علي، كتاب الاكتشافات الجغرافية، ط1، مصدر سابق، ص 14. راجع أيضاً: ه.ج. ويلز، معالم تاريخ الإنسانية، الكتاب السابع، ص 828.

(3) راجع: عبد العزيز محمود الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، مصدر سابق، ص 107. وراجع: بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 30.

(4) المصدر السابق، ص 30 - 31.

4 - الوضع قبل وصول البرتغاليين :

استمرت سيطرة الهند على سواحلها، بدون منازع، حتى نهوض البحرية العربية - الإسلامية في عهودها الأولى، على أن العلاقة الهندية - العربية اتسمت بطابع تنافسي صريح، ولم يحدث أن تجابهت القوتان في البحر من أجل التجارة. فقبل مجيء الأوروبيين وتلويثهم تجارة البحر السلمية، كانت «فكرة السيادة على البحر» شيئاً غير معروف في مفاهيم الآسيويين «ولم يحدث قط في أي عصر من العصور، أن مارست دولة آسيوية السيطرة على حركة مرور السفن، ولم يحدث أن شابت نشاطات العرب التجارية أي شائبة سياسية، وكان العرب يتجرون بمنتهى الحرية بجميع الموانئ الهندية...». وعندما وصل (فونسو البوكرك) إلى ساحل الملايو لاحظ أن التجار العرب والهنود والصينيين كانوا يتنافسون في أسواق تلك المنطقة تنافساً صريحاً لا لبس فيه⁽¹⁾ وكانت سفنهم الصغيرة والكبيرة خاصة بالتجارة، ولا تعرف الحروب ولا تستعد لها، لذلك كان وصول المراكب البرتغالية الكبيرة، حادثاً جديداً عليهم⁽²⁾.

وكانت التجارة الشرقية تسلك ثلاثة معابر إلى أوروبا، شطر ضئيل منها يعبر براً بالقوافل من أواسط آسيا إلى القسطنطينية ومن هناك إلى أوروبا، وطريق يمر عبر الخليج العربي إلى البصرة ثم إلى بغداد، حيث تعبر دجلة والفرات غرباً نحو حلب، ثم الثغور الشامية، وأخيراً طريق البحر الأحمر تجتازه السفن حتى السويس، ثم تنتقل المتاجر عبر الصحراء إلى القاهرة، ومنها إلى الإسكندرية، أو دمياط⁽³⁾.

ويقوم العرب بالدور الرئيسي في خدمة هذه التجارة، يعاونهم بذلك المسلمون الآخرون. فالمسلمون عموماً يملكون ويديرون معظم السفن العاملة

(1) راجع: ول ديورانت، قصة الحضارة، الجزء الثاني من المجلد السادس، مصدر سابق، ص 56.

(2) ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 33.

(3) راجع: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص 335.

في البحار الشرقية، ويؤمنون الجانب الأكبر من هذه الحركة التجارية الناشطة في المحيط الهندي عبر البحار العربية ثم عبر البر المصري إلى المتوسط ثم أوروبا أو إلى الخليج العربي إلى (بغداد) ثم المرافئ الشامية.

وهذه الحركة التجارية الناشطة في المحيط الهندي ارتكزت على محطتين رئيسيتين: سواحل الملابار حيث كانت مدينة (كاليكوت) تؤلف المرفأ الرئيسي، وهو ميناء واقع في إمارة (زامورين) (كاليكوت) أما الثانية فكانت (ملقا)، التي هي من الإنشاءات التي أوجدها المسلمون فشكلت نقطة التقاء بين الحركة التجارية في المحيط الهندي وبحار الصين، ويقع فيها مقايضة وتبادل محاصيل الصين والسيام وجزر التوابل، وجزر الصولد مع البضائع والسلع والمحاصيل من الهند والجزيرة العربية وإفريقيا وأوروبا.

وكانت محاصيل الشرق الأقصى ترد إلى كاليكوت والمرافئ المجاورة لها، ويأتيها فلفل مقاطعة الملابار، والمحاصيل الهندية الأخرى، كالقرفة، والحجارة الكريمة من سيلان، والتيلة من غوجارات (كوجرات) والمنسوجات القطنية والجوت من البنغال وكوجرات، بالإضافة إلى الأفيون والعقاقير، ثم يتم العبور بهذه البضائع في البحر الأحمر، والخليج العربي، وعبر الأراضي العربية: الشام ومصر إلى أوروبا بعد إبحارها في المتوسط، مقابل الذهب، والفضة، وخيل العجم، وجياد الجزيرة العربية، والحريير الخام واللائيء من فارس، والبن والعطور من البلاد العربية، والنحاس والقصدير والزنك والرصاص والزئبق والمخمل والديباج من أوروبا، حيث تصل الشرق الأقصى عن طريق البلاد العربية، والعاج والعنبر والمرجان والعبيد من أفريقيا لسد حاجات الجيوش والبلاطات الملكية⁽¹⁾.

ولم يكن يُسمح ببقاء السفن طويلاً في موانئ آسيا خشية أن يفتك بها

(1) راجع: عبد العزيز محمود الشناوي، أوروبا في مطلع العصور الحديثة، مصدر سابق، ص 85. وراجع: غوستاف لوبون، حضارة الهند، ترجمة عادل زعيتر، مطبعة دار إحياء الكتاب العربي، ط1، 1948، ص 237.

السوس، فكلف التجار وكلاء لهم من الأهالي لشراء التوابل مباشرةً من منتجها يحفظونها في مستودعات لحين وصول السفن في مواسمها لشحنها «وكان نيسان أفضل الشهور لاجتياز باب المندب، أما الوقت المناسب لمغادرة (ملقا) فكانت بين أيلول ونيسان، وكثيراً ما عوّل التجار على التحويل والسفائح المالية في معاملاتهم»⁽¹⁾.

وفوجيء الناس بوصول السفن الشراعية البرتغالية ذات الصواري الأربعة إلى مياه المحيط الهندي، ويذكر الشيخ نور الدين أنهم وصلوا الهند عام 1498، في ثلاث مسماريات (= مثبتة ألواحها بالمسامير وليس بالخيوط) في الوقت الذي كانت فيه السفن الإسلامية، حتى القرن السادس عشر، في البحار الشرقية تُثبت بالخيوط التي يغرزونها خلال ثقوب على الأطراف المتجاورة للألواح الخشب⁽²⁾.

5 - الواقع السياسي الهندي عند قدومهم:

حين حط البرتغاليون في المحيط الهندي، كانت الهند موزعة بين عدة دول إسلامية أقواها سلطنة دلهي، يليها كوجرات، ودول هندوسية كانت (فيجاياناجار) أقواها وأشدّها عداءً وكرهاً للإسلام، وهي من بسط يديه إلى البرتغاليين نكايةً بالمسلمين، وارتكز عليها البرتغاليون لإضعاف الوجود الإسلامي هناك.

فدولة الغوريين في (دلهي) 1206 - 1555، التي وضعت يدها على الجزء الأكبر من الهند، ومارست نهجاً إسلامياً تسامحياً في علاقتها مع الهندوس، زعزع أركانها غزو (تيمورلنك) لبلاد الهند (806هـ/1398م)، وكان من نتائج هذا الغزو التيموري، وما أثاره من خراب ودمار في أرجاء الأمبراطورية الغورية المسلمة، أن اجتاحت الفوضى والاضطرابات كافة الأقاليم التي دخلها الغزاة، ثم ما لبثت أن أعلنت ولاياتها الكبرى انفصالها: مالوه، وجونيور، والدكن، والبنغال التي استقلت

(1) راجع: روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، المجلد الرابع، مصدر سابق، ص 600 - 601.

(2) المصدر السابق، ص 602.

قبل غيرها، وسلطنة كجرات البحرية المسلمة (1391 - 1583) التي كانت مستعدة للقتال إلى جانب المسلمين الآخرين: المماليك ثم العثمانيين ضد الخطر البرتغالي⁽¹⁾.

وتعد (كجرات) ثاني إمارات الهند بعد دلهي، فمن شاطئها، عند صورات، وخليجها بمباي، كانت تبحر السفن بمنتجات الهند من توابل وثمار، وعطور، وسيوف ومنسوجات حريرية وقطنية وأحجار كريمة إلى بلاد العرب، وإلى البحر الأحمر، تنتقل بعد ذلك إلى البحر المتوسط لتحملها فلك أخرى من هناك إلى ثغور أوروبا، وقد ذاع صيت سلطانها (محمود بيكر) لعقده العزم على طرد البنغاليين، من سواحل الهند الغربية، حيث نزلوا على مقربة من بمباي وأخذوا يقطعون الطريق على سفن الحج والتجارة، وقد تعاون مع (الغوري) و(سليمان القانوني) لمحاربتهم⁽²⁾.

وقد تأسست امبراطورية مغولية مسلمة على يد (بابر) في عام 1526، مثلت هذه الأمبراطورية أعلى ما وصلت إليه الهند الإسلامية من روعة وازدهار ثقافي وسياسي، على يد (بابر) وحفيده أكبر (1556 - 1605)⁽³⁾. ومن عاصمتهم دلهي توسع (أكبر) وضم شمال الهند، واستخدم الراجبوت والهندوس، ومارس سياسة التسامح الديني، وبسط سلطانه على كشمير، والبنغال، وعلى الجنوب صوب هضبة الدكن، وغرباً على حساب (راجبوتانا) وكاد استيلاؤه القصير الأمد على كوجيرات (كجرات) في عام 1572، أن يعطي امبراطوريته

(1) راجع: جورج فضلو، العرب والملاحة في المحيط الهندي، ترجمة السيد يعقوب بكر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، بدون تاريخ، ص 248.

(2) راجع: أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين في شبه الجزيرة الهندية وحضارتها، ج 1، الإدارة الثقافية في وزارة التربية، مكتبة دار الآداب، مصر، بدون تاريخ، سلسلة ألف كتاب - 158 - ص 209. راجع أيضاً: عزيز أحمد، الهند، تراث الإسلام، القسم الأول، تصنيف شاخت وبوزورث، ترجمة محمد زهير السهموري، سلسلة عالم المعرفة، الكويت، 1978، ص 200. راجع أيضاً: غوستاف لوبون، حضارة الهند، مصدر سابق، ص 222.

(3) راجع: أحمد محمود الساداتي، تاريخ المسلمين...، مصدر سابق، ص 210 - 211.

نافذةً على البحر، ويجعله يتصل بالبرتغاليين في صورات. ولكن طموحات أكبر كانت قارية فحسب، فلم يفكر بمواجهة البرتغاليين، وإن بقيت (صورات) هامةً بالنسبة له ولخلفائه، فإنما لأنها الميناء الرئيسي لسفر المسلمين للحج⁽¹⁾ فقبل أكبر، كما يقول موسينيه، بطلب الترخيص له، وبدفع الرسوم المتوجبة على السفن المعدة لنقل الحجاج من صورات إلى مكة⁽²⁾ على الرغم من أن (أكبر) أعاد إنشاء الأمبراطورية الهندية السابقة، من الهمالايا إلى الدكن الشمالية، ومن أفغانستان إلى البنغال إلا أنه مارس سياسة سلبية تجاه ما يجري في المحيط الهندي فافتقدت فيه عناصر المقاومة للغزو البرتغالي احتياطاً جباراً للقوة هي بأمس الحاجة إليه، مما سهل الأمر للبرتغاليين.

وفي مقابل القوى، والدول الإسلامية الهندية، فقد برزت منذ القرن الخامس عشر دولة (فيجاياناجار) الهندوسية، التي ناصبت للمسلمين العداء، وكذا الإمبراطورية المغولية المسلمة: «والمهم أن نلاحظ أن أباطرة (فيجاياناجار) كان يجمعهم مع البرتغاليين نزعة القتال ضد المسلمين، فكان الإسلام هو العدو المشترك لكل من البرتغال والفيجاياناجار، وذلك عامل له أهميته الضخمة في توطيد قدم سلطان البرتغال بمدينة (جوا)»⁽³⁾.

في الوقت الذي وصل فيه البرتغاليون إلى الهند، كانت تقوم في شمالها ووسطها عدة دول إسلامية قوية، بجانب حكومة (دلهي) فكان في كجرات دولة إسلامية قوية، وفي مالوا، وفي الدكن أربع ممالك إسلامية، عدا عن الممالك الإسلامية في شرق الهند، وكان يجاور الممالك الإسلامية في الدكن بعض الممالك الهندوسية وأهمها (فيجاياناجار)، وكانت الحروب والعداوات

(1) راجع: ستانلي لين بول، الدول الإسلامية، محمد صبحي فرزات، مكتبة الملاح، دمشق 1984، ص 688. راجع أيضاً: عزيز أحمد، الهند، تراث الإسلام، مصدر سابق، ص 203.

راجع: غوستاف لوبون، حضارة الهند، مصدر سابق، ص 223.

(2) راجع: جلال يحيى، تاريخ العلاقات الدولية...، مصدر سابق، ص 261 - 262.

(3) راجع: روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص 605.

بين المسلمين والهندوس لا تتوقف في هذه المنطقة⁽¹⁾.

وكانت الشقة الساحلية الواقعة على النهاية القصوى لشبه جزيرة الهند، والتي يفصلها جبال الغات الغربية، التي لا يمكن اختراقها، عن دولة (الفيجاياناجار)، وهي المنطقة الوحيدة التي قامت بها بعض الإمارات الصغيرة المستقلة، والتي تعرف باسم مالبار أو كيرالا، المعروفة بمنطقة الفلفل، ومن أهم حكامها (الزامورين) صاحب كاليكوت الهندوسي ولكنه صديق للمسلمين، والذي تعاون معهم دائماً ضد البرتغاليين، وهو الذي وصل إلى عاصمته (كاليكوت) فاسكو دي غاما⁽²⁾ وكان الزامورين ملكاً عظيماً، حيث كانت عاصمته المركز الرئيسي لتجارة الأفويه. ولم يكن ذلك مقصوراً على الفلفل وحب الهال ومنتجات أخرى من ساحل ملبار، بل إن توابل منقولةً من جزر المحيط الهادي كانت تمر بكاليكوت في طريقها إلى أوروبا⁽³⁾.

6 - العراك، وسياسة القوة:

أثار وجود العرب الكثيف في المحيط الهندي، وسيطرة سفنهم مع المسلمين الآخرين، دهشة وامتعاض (فاسكو دي غاما)، فاكتمى بالحصول على إذن بالتجارة من الزامورين صاحب كاليكوت وصديق المسلمين، الذي لبي طلبه بعد تردد.

عمانويل - ملك البرتغال - لم يعجبه هذا. إن ما يريده هو أن يصبح سيد البحار هناك، وأن يفرض ما يريده بالقوة. لذلك جهز أسطولاً عظيماً بقيادة (كيرال)، خالفاً عليه البابا لقب (سيد الملاحة والفتح والتجارة في إثيوبيا، وبلاد العرب والهند وفارس).

أبحر كيرال عام 1500، كان عليه السفر فوراً، إلى كاليكوت (قاليقوط)،

(1) ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 35.

(2) راجع: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص 336.

(3) راجع: ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 36.

ومطالبة الزامورين، تحت التهديد بالحرب، بالإذن لإنشاء مركز تجاري، والسماح لخمسة من الفرنسيين سكان بالتبشير في إمارته.

قادت غطرسة كبرال، واستفزازة إلى قيام ثورة شعبية قتلت الكثير من رجاله، فانسحب مضطراً، بعد أن أمطر الشاطئ بوابل من نيران مدفعيته «على الرغم من محاولته استغلال الخلاف بين الزامورين والأمراء المجاورين له في كشن وکانانور الذين انضموا إليه وساعدوه، ولكنه اضطر أخيراً أمام قوة الزامورين البحرية إلى العودة إلى البرتغال محملاً بالبضائع والنفائس⁽¹⁾. إلا أن أساطيل البرتغال لن يقف تدفقها «عمارة تعقب عمارة»، و(الدون مناويل) سيعقب كبرال مباشرة، «محملاً بأوامر أن ينفذ بالقوة ادعاء السيادة على البحار الهندية»⁽²⁾.

وفي عام 1502 سيقود فاسكو دي غاما عشرين سفينة، أقام مراكز للتوابع في كل من سفالة، وموزمبيق، وكلوة، في الطرف الشرقي من أفريقيا، وأشعل النيران بسفينة حجاج في المياه الهندية، وعندما رفض (الزامورين) طلباته، شق ومثل بخمسين رهينة بوحشية نادرة، ليبرهن، وهو (المكتشف) على أنه، على مستوى (الضمير الأخلاقي)، ليس أكثر من إنسان متوحش. ثم توجه إلى كوتشين حيث وقع مع حاكمها الهندوسي (ترايمومبار) معاهدة صداقة وتجارة؛ وكذلك مع حاكم كانوري⁽³⁾.

وعلى الرغم من أن أسطول (الزامورين) يفتقد لسرعة النيران التي تمتاز بها السفن البرتغالية المزودة بالمدفعية الثقيلة، إلا أن أمير الأسطول قاسم (العربي) أجبر السفن البرتغالية على الهرب. ولكنه عجز عن تعقب (دي غاما) ليجني ثمار نصره «ذلك لأن أسطول كاليكوط لم يكن معداً لأعالي البحار، ولا يستطيع القتال إلا في المياه الساحلية»⁽⁴⁾.

(1) المصدر السابق، ص 36 - 37.

(2) عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص 337.

(3) ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 40.

(4) راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 77.

ولم يغادر (دي غاما) المياه الهندية حتى أقبلت عشرون سفينة بقيادة (سواريس) قامت بهجوم مفاجئ على عمارة كاليكوت البحرية فدمرتها، وأعقبها بحملة على السفن التجارية، عندئذ أدرك (الزامورين) أن سفنه لا قبل لها بمواجهة سفن (الكرافيل) الثقيلة التسليح، وأنها لن تفوز عليها أثناء العمليات البعيدة، فطلب مساعدة سلطان مصر⁽¹⁾.

7 - دور المماليك:

ويبدو أن صلة المماليك ببلاد الهند قد بدأت منذ عهد بعيد. ففي عهد (الناصر محمد بن قلاوون) أرسل أحد ملوك الهند يستمنح الخليفة العباسي بالقاهرة تفويضاً لملكه، ليكسب صفة الشرعية، واستجاب له الناصر محمد والخليفة. ونقش هذا الملك اسم الخليفة على سكة بلاده، وتكررت هذه الواقعة في عهد أشرف قايتباي، وأرسل ملك الهند الهدايا إلى ملك القاهرة وخليفتهما، واستوردت مصر من الهند، الحنطة والحمص والسمن وجوز الهند، وغير ذلك، واستوردت الهند منها الكتان وغيره⁽²⁾. وعندما أتت رسائل (الزامورين) إلى السلطان (الغوري) في القاهرة، كان المماليك وعموم المشرق العربي قد عانوا من انقطاع خط التجارة الشرقية عن أراضيهم وما رافقها من خسارة المكوس المترتبة عليها، واستشعروا المخاطر الجدية الناجمة عن الاختراق البرتغالي، وما غابت تلك المخاطر عن بال ابن إياس، وابن طولون، كما بيّنا ذلك سابقاً، وهذا (النهرواني) المعاصر لتلك الأحداث ينبهنا قائلاً «وقع في القرن العاشر دخول البرتغاليين، من طوائف الفرنج الملاعين إلى ديار الهند»⁽³⁾.

(1) ك.م. بانينكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 42.

(2) المصدر السابق، ص 42.

(3) راجع: محمد رزق سليم، قانصوه الغوري، سلسلة أعلام العرب - 52 - الدار المصرية للتأليف والنشر، القاهرة، بدون تاريخ، ص 113.

ولكن الممالك، في ذلك الحين، كانوا في أسوأ أحوالهم، على صعيد البناء الاجتماعي، والاقتصادي، والسياسي، فاكتمى السلطان الغوري عندما أناه رُسل (الزامورين) بأن أرسل البابا يتوعده بتخريب الأماكن المقدسة المسيحية في بيت المقدس، إذا لم يستدع البرتغاليين من الهند، ويأمرهم بالكف عن عدوانهم على البحار الشرقية الإسلامية⁽¹⁾.

البرتغاليون لم يعبأوا بتلك التهديدات، واستمروا في عدوانهم، وأرسلوا حملة عام 1505، بقيادة (فرانيسكو دي الميدا)، أريد بها أن تدشن مرحلة جديدة في الصراع البرتغالي - الإسلامي في المحيط الهندي، بأن تقضي على تفوق العرب التجاري عن طريق احتلال عدن وهرمز وملقا، ومفاتيح البحر الأحمر، والخليج العربي، والمحيط الهندي، واحتلال نقاط ارتكاز على طول الخط التجاري، وتدعيمها بالقلاع اللازمة لحمايتها⁽²⁾. جعل (الميدا) كوشين - التي قدمها له الحاكم الهندوسي - مقراً له، ونقطة ارتكاز لتحركاته، ودعمه (الملك عمانويل) عام 1506 بحملة بقيادة (ترستان) الذي وضع يده على (سوقطرة) ليتحكم في مداخل البحر الأحمر، وسيتكفل (ألبوكرك) بإلزام حاكم هرمز بالجزية.

إن عدم جدوى وسائل (الغوري) التهديدية، والجذب الذي أصاب تجارة الممالك، وإفقار ميناء السويس والإسكندرية، وظهور الخطر بكل جلائه، دفع الغوري إلى طلب مساعدة العثمانيين لبناء أسطولهم، الذين بادروا (= بايزيد الثاني) بإرسال الأخشاب والحبال، والحديد، والنحاس والبارود،

(1) قطب الدين النهرواني، البرق اليماني في الفتح العثماني، دار اليمامة، الرياض، 1967، ص 18.

(2) راجع: صبحي وحيدة، المسألة المصرية، مكتبة مدبولي، القاهرة، بدون تاريخ، ص 128. وراجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 95، حيث يقول: «أرسل الغوري رسالة شديدة اللهجة، إلى كل من البابا والملك عمانويل، يطلب منهما منع المسيحيين من الملاحة في البحر العربي، ويهدد بقتل جميع المسيحيين في مصر».

والمدافع أيضاً، على سبيل الهدية، وبدون أي ثمن مقابل⁽¹⁾.

استجاب، أخيراً، قانصوه الغوري لطلب الزامورين، الذي انضم إليه ملك كجرات السلطان محمود بيكرو، ويحدثنا ابن إياس في حوادث سنة 911هـ عن «خروج التجريدة المصرية إلى بلاد الهند، وكان لها يوم مشهود، وقد جهز لهم السلطان عدة مراكب مشحونة بالزاد والسلاح». وكان الأسطول تحت قيادة المملوكي حسين الكردي والضابط العثماني الكبير سليمان رئيس. وحين وصول الأسطول إلى المياه الهندية، انضم إليه أسطول الزامورين وأسطول سلطان الكجرات سنة 914هـ/1508م⁽²⁾. وكانت خطة المير (حسن الكردي) - كما يصفها بانيكار - بسيطةً وسليمة، كان هدفه الأول هو جزيرة (ديو) التي صمم أن يتخذ منها قاعدة له، وأن يقيم اتصالاً مع بحرية الزامورين، وعندها يقوم الأسطول المشترك بمهاجمة البرتغاليين.

وصل حسين الكردي إلى (ديو) وانضمت إليه - حسب ما توقع - سفن الزامورين، وسجل انتصاراً جلياً، في بداية المعارك 1508، التي قُتل فيها قائد الأسطول البرتغالي (لونزوالميدا)⁽³⁾. ثم التقى الطرفان في معركة فاصلة، وبعد يومين من إطلاق المدافع عزم البرتغاليون على الفرار، لولا رباطة جأش (فرنسيسكو الميدا) وخيانة مالك أياز حاكم (ديو) الذي حرم الأسطول المملوكي من المدد والمؤن، مما دفع (حسين الكردي) للانسحاب من المياه الهندية⁽⁴⁾ تاركاً السيادة للسفن البرتغالية، وقد ارتكب (الميدا) بالأسرى فظائع

(1) راجع: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص 337.

(2) راجع: عبد الكريم محمود غرايبة، مقدمة تاريخ العرب الحديث، جامعة دمشق 1960، ص 12. راجع أيضاً: رضوان السيد، القوى البحرية العثمانية والصراع على المحيط الهندي، بالميرا بروميت، الاجتهاد، العددان السادس والعشرون والسابع والعشرون، سنة سابعة 1995.

(3) راجع: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص 338.

(4) راجع: عبد القادر أحمد يوسف، العلاقات بين الشرق والغرب من القرن الحادي عشر إلى الخامس عشر، المكتبة العصرية، بيروت 1969، ط 1، ص 258.

مروعة، إذ ربط بعضهم على فوهات المدافع، ليرى تناثر أشلائهم، بعد القصف⁽¹⁾.

ومع انسحاب الأسطول (المملوكي)، أو هزيمته، تأكد، فعلاً لا قولاً، ادعاء البرتغاليين بأنهم سادة الملاحة في البحار الشرقية لا ينازعهم فيها أحد، وكان لتأخر التدخل المملوكي المباشر في الصراع، بعد عشر سنوات من الاختراق البرتغالي، دوره الأکید في توطيد وجودهم، وبناء قوتهم، وتحالفاتهم، في المحيط الهندي، مما سهل لهم حسم المعركة لصالحهم.

سُيْعِنَ (الفونسو البوكيرك) نائباً لملك البرتغال، بعد تراجع الأسطول المملوكي، بعد أن اختُبر تعصبه المحموم، ونزوعه الإجرامي الذي لا مثيل له، منذ عام 1506، على طول السواحل العربية: سوقطرة، ساحل عمان، حيث سيتوج أعماله بإحراق مسجد مسقط بمن فيه، ويُظهر تفننه في تعذيب وتشويه النساء والأطفال. أما عند احتلاله (جوا)، بعد رحيل المصريين، فقد عرض (البوكيرك) للسيف كل عربي فيها، وأضرَم النار بالمساجد الممتلئة بالناس. وقد وضع نصب عينيه الاستقواء بالهندوس على المسلمين، واستغلال عدائهم المرير للإسلام، فهو ما استطاع احتلال (جوا) وتحويلها قاعدةً له، لولا مساعدة (تولاجي) رئيس المنطقة الهندوسي، الذي انحاز للبرتغاليين لكي يُضعف من قوة سلاطين (آل عادل شاه) في (كجرات)، ولولا مباركة سلاطين (فيجاياناجار) الهندوس الذين لم يقتصرُوا على إبداء الترحاب باحتلال البرتغاليين (لجوا)، بل أقاموا معهم أطيب العلاقات، وقبلوا طلب البوكيرك بإنشاء مؤسسة في (بهاتال).. فقد وُحِدَ بينهما عداؤهما المشترك

(1) هناك من يعزو التراجع المملوكي لخيانة حاكم ديو فقط، راجع في هذا: ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 43 - 44. ومنهم من يعزبها للخيانة والهزيمة معاً، راجع: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ج1، ص 338. راجع أيضاً: أحمد محمد عبید بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، حيث يؤكد مع ابن إياس تمكّن الأسطول البرتغالي من إنزال هزيمة ساحقة بالممالك وحلفائهم عام 1509، ص 104.

للإسلام⁽¹⁾.

التفت البوكرك بعد (جوا) إلى منطقة الملايو، والمحيط الهادي، المركز الرئيسي لتجارة الأفاويه، إذ كانت هذه التجارة تمر من خلال مضيق (ملقا) وينقلها العرب إلى البحر الأحمر. وبعد جهود مضية سقطت (ملقا) بين يديه، فأعمل السيف بالمسلمين، وأثقل المدينة بالدمار. فأخذت تتجمع - كما يقول موداك - «مسارات مختلفة من تاريخ العالم، فهجوم البوكرك على دولة ملقا، لم يكن مجرد مغامرة تجارية، بل كان استمراراً للحروب الصليبية، فقد كان المسيحيون في الغرب يقاتلون العرب والأتراك... ويؤدي الاستيلاء على (باب الضريبة) في ملقا إلى السيطرة على تجارة جزر التوابل والتجارة البحرية للشرق الأقصى مع الهند والشرق الأدنى»⁽²⁾.

مثلما استغلوا العداء الهندوسي، سيلعبون بورقة إثيوبيا في البحر الأحمر، وشرق أفريقيا، وبورقة العداء (الصفوي) للعثمانيين لتسهيل دخولهم الخليج العربي، وتحكمهم بمصير خط التجارة المار بالبصرة - بغداد - حلب إلى الموانئ الشامية.

وبالفعل، سيعقد البوكرك صفقة مع الصفويين، عند احتلاله هرمز 1515، يتعهد البرتغاليون فيها بمعاونة الشاه إسماعيل على القضاء على الحركات الانفصالية في إقليم كمران، وعلى تعاوضهما العسكري ضد الدولة العثمانية⁽³⁾.

جدد البرتغاليون اتصالهم بأثيوبيا في عام 1507م، الذي بدأه عام 1490م،

(1) راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 105.

(2) راجع: ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 47. وراجع: عبد المنعم النمر، تاريخ الإسلام في الهند، مصدر سابق، ص 339. حيث يقول: «وكان البرتغاليون قد استطاعوا بمساعدة الهندوس (المراهتا)، وفي مملكة (فيجايا نكر) أن يستولوا على (جوا) سنة 1510، وكانت في آخر أملاك عادل شاه».

(3) مانوراما موداك، الهند شعبها وأرضها، ترجمة العميد محمد عبد الفتاح إبراهيم، مؤسسة فرانكلن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة 1964، ص 58.

لتنسيق الجهود مع الإسلام، ولاختراق البحر الأحمر، والقضاء على التجارة العربية فيه، وربما للانقضاض على الأماكن المقدسة الإسلامية، ثم للوصول إلى بيت المقدس.

واقترح البوكرك - كما يشير إلى ذلك ديورانت - على ملك الحبشة المسيحي، أن يحولا مجرى النيل إلى البحر الأحمر: «ويجعل مصر الإسلامية بأسرها صحراء قاحلة، ولكن المتاعب أرغمت البوكرك أن يقفل راجعاً إلى (جوا) حيث مات عام 1515م»⁽¹⁾.

خرج البوكرك عام 1513م بعشرين سفينة حربية وحاصر عدن أربعة أيام دون جدوى، اتجه بعدها، متوغلاً شمالاً في البحر الأحمر واستولى على جزيرة كمران، وقتل سكانها، لكنه ما استطاع الوصول إلى ميناء جدة، ليتخذها قاعدة لهجومه المرتقب على مكة والمدينة، وتبوك، ثم بيت المقدس، إذ كان يعتقد، كما ورد في رسالته إلى ملك البرتغال: «من السهل تجهيز 500 فارس برتغالي بمعداتهم للنزول إلى جدة، ومن هناك ينتقلون إلى مكة، وهي رحلة يوم ليجعلوها رماداً»⁽²⁾.

بدأ الخطر يحف قلب الأرض العربية وبحارها، واعتاد البرتغاليون الإغارة على المدن الساحلية العربية - الإسلامية على حافتي البحر الأحمر، وأمطروا سواكن، وزيلع، ومصوع بالنيران؛ في وقتٍ كانت تجري فيه، ببطء الاستعدادات المملوكية للحملة الثانية البحرية، بمساعدة عثمانية ملموسة. وعندما خرجت الحملة، أخيراً، عام 1515م، كان العثمانيون فيها الأكثرية، بقيادة سلمان رئيس، الذي مكث بجدة حتى تسلم العثمانيون زمام الأمور في مصر⁽³⁾.

(1) راجع: مصطفى سالم، الفتح العثماني الأول لليمن، معهد البحوث والدراسات العربية، القاهرة، ط2، ص 406.

(2) ول ديورانت، قصة الحضارة، ترجمة عبد الحميد يونس، الجزء الثاني من المجلد السادس، مصدر سابق، ص 57.

(3) عن: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 89.

8 - الدور العثماني :

ما تهرب العثمانيون من واجب مقاومة الاختراق البرتغالي، أو الاستعداد لمواجهته، فقدموا كل مساعدة ممكنة للمماليك لتدارك الخطر القادم، في حين أثبت المماليك عجزهم، حتى، عن حماية طريق الحج من الأعراب «مما جعل الجميع - بما فيهم البنادقة - يتطلعون إلى العثمانيين كقوة قادرة على حماية الحرمين، وطرق الحج، ومواجهة البرتغاليين»⁽¹⁾.

وقد استشعر البرتغاليون، دائماً، مخاطر التدخل العثماني في الأحداث وهذا ما يظهر في رسالة بوكرك إلى مليكه عام 1512: «إن أكبر الشرور التي تهدد (جوا) هي الأنباء التي تذكر أن الروم (= العثمانيين) قادمون، إنهم مصدر خطر كبير على الهند، وإن مثل هذه الإشاعات تخلق الكثير من القلق»⁽²⁾.

تضاعفت المساعدة العثمانية للمماليك بعد هزيمة الحملة الأولى في (ديو) عام 1509، على الرغم من بطء رد فعلهم على الأحداث، وتذبذب مواقفهم أمام الصراع الصفوي/العثماني، الذي برز بكل قوة ووضوح.

إن ضلوع الصفويين في العمل ضد العثمانيين، وموقعهم التنافسي مذهبياً، وتردد الموقف المملوكي وضعفه، سيلعب - مع جملة من العوامل الأخرى - في أن يتدخل العثمانيون ليغيروا سيناريو الأحداث وموازين القوى فيحجّموا دور الصفويين بدفعهم إلى ما وراء تبريز، ثم يتقدمون ليضموا مصر والشام والحجاز، وعلى حساب المماليك، وليصبحوا بذلك، قبالة البرتغاليين، وجهاً لوجه.

دخل السلطان سليم الأول القاهرة عشية مغادرة الحملة الثانية المملوكية - العثمانية المشتركة، التي عطل جهودها الصراع بين القائد المملوكي حسين الكردي والضابط العثماني الكبير (سلمان رئيس) فأوكل السلطان العثماني إلى الأخير أمر

(1) راجع: رضوان السيد، القوى البحرية العثمانية والصراع على المحيط الهندي، بلميرا بروميت، مصدر سابق، ص 370.

(2) المصدر السابق، ص 364.

القيادة في جدة، لحماية البحر الأحمر، والأماكن المقدسة، كمقدمة لمهام أخرى حاسمة.

صدّ سلمان رئيس حملة (سواريس) على جدة عام 1517، ودفع ضررهم عن سواحل اليمن والحجاز، وصدّ حملة أخرى عام 1520م على (دهلك) وثالثة استهدفت (مصوع)⁽¹⁾. وذهبت عمارة بحرية عثمانية في هذه الأثناء، من اليمنيين والعثمانيين، لنجدة سلطان كوجرات (بهادور) حيث دخلوا في خدمته، مما أضر استيلاء البرتغاليين على (ديو)⁽²⁾.

ولم يضع حداً للعبث البرتغالي بسواحل الخليج العربي سوى دخول الدولة العثمانية الميدان هناك. بعد قدوم سليمان القانوني إلى بغداد، إثر انتفاضة الأهالي المؤيدة للعثمانيين عام 1534، مما دفع بحكام البصرة وخوزستان والبحرين والقطيف والاحساء وغيرها من الإمارات، تحت ضغط الخطر البرتغالي، إلى الإقرار بالولاء للسلطان العثماني⁽³⁾.

فأنشأ العثمانيون ترسانة لهم في البصرة، ومدوا وجودهم، المؤيد من الأهالي، في قطيف، والاحساء، وحضرموت، تداولوا السيطرة - مع البرتغاليين - على البحرين ومسقط. وتمكنوا مع ازدياد دورهم في الخليج، واستقرارهم في البصرة، من السيادة الفعلية على الطريق التجاري الذي يمر من تبريز إلى أرض الروم، وطوقان وبورصة، وطريق التوابل الذي يمتد من البصرة إلى بغداد، وحلب إلى موانئ الشام⁽⁴⁾.

(1) عن: عبد الكريم محمود غرايه، مقدمة تاريخ العرب الحديث، مصدر سابق، ص 19.

راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 111.

(2) راجع: قطب الدين النهرواني، البرق اليماني في الفتح العثماني، مصدر سابق، ص 38 - 39.

حيث يقول: «كانت الفرنج تكمن في جبل كمران، ويتخطفون المسلمين من السواحل، وينهبون ما يقدرون على نهبه، فلما وصل الرئيس دفع ضررهم... ونظف سواحل اليمن منهم».

(3) راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 257.

(4) راجع: نيقولا أيفانوف، الفتح العثماني للأقطار العربية، يوسف عطا الله، الفارابي، بيروت

يمكننا القول، أن سليمان القانوني (1520 - 1566) أظهر دراية تامة بالمشاكل التي تواجه الإسلام في الوقت الذي أصبحت فيه امبراطوريته العثمانية في موقع القلعة، أو السياج للعالم الإسلامي، وضع خططاً سياسية ذات طابع كوني، فهو يعرف أن عدوه الرئيسي، في التخوم الغربية، وعلى البحر المتوسط: الامبراطورية الرومانية المقدسة، وإسبانيا التي ظلت حتى عام 1559 جزءاً من هذه الامبراطورية. وهو على دراية حقيقية بخطورة ما يجري في البحار الشرقية، وفداحة الأضرار الناجمة عن إبعاد العرب عن أسواق تجارة الشرق الأقصى، لذلك فتح باب المفاوضات مع الزامورين صاحب كاليكوت، ومع ملك كامباي المسلم، وعقد اتفاقاً معهما يقضي بالعمل المشترك ضد الأعداء، كما يشير إلى ذلك بنيكار⁽¹⁾. وأصدر السلطان أوامره إلى (سليمان باشا الخادم) والي مصر: «عليك يا بيك البكوات (بكلربك) بمصر سليمان باشا، أن تقوم فور تسلمك أوامرنا هذه بتجهيز حقيبتك وحاجاتك وإعداد العدة بالسويس للجهاد في سبيل الله... فعليك أن تخرج إلى الهند وتحافظ على تلك الأجزاء...»⁽²⁾.

صدع سليمان باشا الخادم وشيد عمارة بحرية هائلة مؤلفة من سبعين سفينة وسلحها بالمدفعية الضخمة، عام 1538، يصاحبه عشرون ألف جندي، وفتح مدائن عدن ومسقط، وحاصر هرمز قاصداً سواحل كجرات، بعد أن رتب الأوضاع في السواحل اليمنية، وسيطر على عدن ليحمي خطوطه الخلفية وكنقطة ارتكاز استراتيجية له.

وهناك في المياه الهندية فتح أغلب الحصون التي بناها البرتغاليون، لكنه

(1) راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 190.

(2) راجع: محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، تقديم وتحقيق وتعليق ليلي الصباغ، دار البشائر، دمشق، ط1، 1995، ص 146 - 148. إذ يعرض الأمر كالتالي: «لما بلغ المرحوم السلطان سليمان استيلاء الفرنج على بلاد الهند، وعجز أهل الهند عن مقاومتهم، بحيث أنهم غدروا بالسلطان السعيد صاحب كجرات، وهو السلطان بهادر شاه فقتلوه، فتحركت عند ذلك حميته على الإسلام، وأمر بترتيب عمارة من مصر».

أخفق أمام ثغر (ديو)⁽¹⁾.

استغل البرتغاليون تأخر الحملة العثمانية، والأخبار المتناقضة عن قسوة (سليمان الخادم) غير المبررة في عدن، حيث أمر بشنق سلطانها وحاشيته بعد أن استقبلوه بالترحاب عند دخوله المدينة⁽²⁾. فاستولى البرتغاليون على ميناء (ديو)، وقتلوا حاكم كجرات غدرًا لعلاقته بالعثمانيين، واضطر أمير كاليكوت إلى مصالحة البرتغاليين، والسماح لهم بالتجارة، وبناء الحصن.

وحينما وصل (سليمان باشا الخادم) إلى مشارف ديو في 4 سبتمبر 1538، حاصر القلعة البرتغالية، كما حاصر (جوا) ثلاثة أشهر ولكنه لم يتمكن من الاتصال بأسطول الزامورين، وانفض الجميع عنه لتوجسهم الخيفة والغدر من قسوته⁽³⁾. فاضطر، أخيراً، للارتداد خائباً في (946هـ، 1539م). ولكنه في عودته رتب الأوضاع في البحر الأحمر، وفي اليمن بشكل حاسم لصالح العثمانيين.

رداً على (سليمان باشا الخادم)، وتنفيذاً لخططهم البعيدة المدى في البحر الأحمر، واعتماداً على تحالفهم مع الحبشة، تحرك (دي غاما) نائب ملك البرتغال قاصداً السويس، القاعدة العثمانية الرئيسية فوصل البحر الأحمر عام 1541م، وبعد أن ضرب مصوع، وسواكن، استقبلته المدافع العثمانية في السويس، فارتد معترفاً بفشله.

فشل الحملة البرتغالية هذه، عزز من موقع العثمانيين كحماة للبحر الأحمر، وأطلقت يدهم لإغلاق هذا البحر أمام الملاحة الأجنبية، أي المسيحية، ولقطع الاتصال بين البرتغاليين والحبشة⁽⁴⁾. فعمل العثمانيون على منع المسيحيين من

(1) ك.م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 50 - 51.

(2) محمد فريد بك المحامي، تاريخ الدولة العلية العثمانية، مطبعة التقدم بشارع محمد علي، مصر، ط3، 1912، ص 100 - 101.

(3) راجع: محمد بن أبي السرور البكري الصديقي، المنح الرحمانية في الدولة العثمانية، مصدر سابق، ص 149 حيث ينعت (سليمان باشا الخادم) حرفياً: «كان سفاحاً».

(4) راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 161.

الإبحار في البحر الأحمر، أو أبعد من ميناء المخا، ورسخوا تدريجياً، تقليداً جديداً، هو تحديد نطاق توغل السفن الأوروبية في البحر الأحمر، بحجة أن الحرمين الشريفين يطلان على هذا البحر⁽¹⁾. من هنا يأتي قول الشناوي: «كانت أعظم خدمة أسدتها الدولة العثمانية إلى الإسلام أنها وقفت في وجه الزحف الصليبي الاستعماري البرتغالي للبحر الأحمر، والأماكن المقدسة الإسلامية في أوائل القرن السادس عشر»⁽²⁾.

لعل إخفاق البرتغاليين في البحر الأحمر، وتوَجَّسهم لمخاطر المواجهة الدائمة مع العثمانيين في الخليج، بعد أن صارت البصرة وعسير والقطيف نقاطاً متقدمةً لجبهة المواجهة، هو ما دفعهم إلى طلب الصلح من سليمان القانوني، الذي رفضه⁽³⁾.

استأنف العثمانيون هجومهم ضد مدينة (ديو) عام 1546 وألحقوا بالبرتغاليين أضراراً كبيرة؛ وهو ما يتواءم مع الهجوم المراكشي في المغرب الأقصى⁽⁴⁾. وأبحر (محيي الدين بيري بك رئيس) عام 1552 من السويس - بعد فرضهم الحماية العثمانية على البحر الأحمر - بثلاثين سفينة حربية، عليها (16) ألف رجل إلى الخليج لطرد البرتغاليين من هرمز وضمها إلى البصرة. لكن (بيري رئيس) فرض الحصار على جزيرة هرمز قبل أن تأتيه النجندات المنتظرة من البصرة، مخالفاً بذلك تعليمات السلطان سليمان القانوني - مما أفسد عليه خطط استيلائه على هرمز، دافعاً حياته ثمناً لهذا الخطأ الحربي الكبير⁽⁵⁾.

وفي تموز 1554 خرج أسطول آخر بقيادة الأميرال والكاتب الشهير (سيدي

(1) راجع: نيقولا إيفانوف، الفتح العثماني...، مصدر سابق، ص 116.

(2) راجع: مصطفى السالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مصدر سابق، ص: 435.

(3) عبد العزيز محمود الشناوي، الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها، ج2، مصدر سابق، ص 862.

(4) راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 181.

(5) راجع: روسلان موسينييه، تاريخ الحضارات العام، مجلد رابع، مصدر سابق، ص 608.

بيري علي) الذي تمكن من الاستيلاء على البحرين ووضع حامية عثمانية عليها، إلا أن البرتغاليين تمكنوا من أسطوله بالقرب من مسقط، ونجا (بيري علي) مع بعض القبط من أسطوله، قاصداً الهند، حيث قرر بحارته الدخول في خدمة سلطان كجرات، وعاد هو برأ إلى الآستانة⁽¹⁾.

حاول العثمانيون تبديل الأوضاع والتوازنات، بعد ضم إسبانيا البرتغال إلى ملكها، فأبحر القائد العثماني (علي ميرال)، الذي استطاع إشعال الثورات على البرتغاليين في كل قواعدهم في ساحل إفريقيا الشرقي، واستقبل الأهالي المسلمون (علي ميرال) بحماسة من ميناء لآخر، وأعلن كل من مقديشو، وبراده، ولامو، وفازا، وبات ولاؤها للعثمانيين، لكن ما لبثت أن عادت إلى سيرتها الأولى، ما عدا (مقديشو) التي بقيت على ولائها للسلطان العثماني. فضاعت الفرصة من أيدي العثمانيين للإمساك بزمام المبادرة، تحت وطأة هزيمة معركة (ليانتو) الشهيرة في المتوسط، ولضعف قوتهم البحرية بالمقارنة مع السفن الأوروبية⁽²⁾ فهزهم البرتغاليون عام 1589م، الذين أعادوا بسط سيطرتهم في مومباسا، وبعض المواقع الأخرى في شرق إفريقيا.

تأكدت السيطرة البرتغالية على أعالي البحار الشرقية، وأمسكوا بمفاتيح تجارة الشرق، إلا أنهم ظلوا عاجزين عن التوغل في البر الإسلامي، والسيطرة على مناطق اليابسة. فمئذ انتهت إلى كارثة حقيقية، محاولة البوكرك - أعلى قواد البرتغال كعباً - في عام 1501م لاحتلال كاليكوت، فتمزقت القوات البرتغالية إرباً إرباً، لم يحاول، بعدها، أي أوروبي أن يقوم بفتح عسكري، أمد مائتين وثلاثين عاماً، و(جوا) نفسها لم يحتلوها إلا بمساعدة الحكام الهندوس⁽³⁾.

(1) راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 195.

وراجع: نيقولا إيفانوف، الفتح العثماني...، مصدر سابق، ص 192.

(2) راجع: نيقولا إيفانوف، الفتح العثماني...، مصدر سابق، ص 194.

(3) راجع: مصطفى السالم، الفتح العثماني الأول لليمن، مصدر سابق، ص 435.

ولم يغيّر دخول الهولنديين، ثم الإنكليز، في نهاية القرن السادس عشر إلى حلبة الصراع من هذه الحقيقة شيئاً، فهم لم يجروا على بسط سيادتهم على البر الإسلامي في الهند، إلا مع نهاية القرن الثامن عشر.

9 - التجارة الدولية :

لم تنجح السيطرة البرتغالية على أعالي البحار الشرقية في منع تدفق السلع عبر البرزخ العربي، ذلك أنّ فتح العثمانيين لليمن، وعدن، وتمكنهم من السيطرة على السواحل العربية للبحر الأحمر، وعلى مناطق سواكن ومصوع على الساحل الإفريقي لهذا البحر، وبسطهم لسيادتهم على الخليج العربي، على البصرة والإحساء، ومحاولاتهم المتكررة لطرد البرتغاليين من هرمز؛ كل هذا أنزل ضربة قاسية بمحاولة البرتغاليين لاحتكار التجارة الشرقية، والتفرد بها، إذ بقيت هذه التجارة ناشطة تمر بالخليج، والبحر الأحمر عبر الأراضي العربية، حتى الربع الأول من القرن السابع عشر حين بدأت تنافسها التجارة الهولندية والانجليزية التي اعتمدت على سفن كبيرة وقوية⁽¹⁾.

وظل التجار العرب، طوال القرن السادس عشر - كما يشير كيرك - يقومون بجلب الحرير والأفاويه والأصباغ، والعقاقير من الشرق، والبن من اليمن، وينقلونها جميعاً في البحر الأحمر، ثم عبر الصحراء إلى القاهرة والاسكندرية، كما بقي جانب آخر من هذه التجارة يسلك الطريق الممتد من البصرة إلى الثغور الشامية للمتوسط⁽²⁾. فبعد ارتباك مؤقت في بداية القرن السادس عشر، يتوافق مع اختراق البرتغال للبحار الشرقية تدفقت السلع التجارية من جديد - بعد أن تمكن العثمانيون من البحر الأحمر والخليج العربي، والحافة الجنوبية لشبه الجزيرة العربية - واستؤنف تصديرها عبر البحر الأحمر والخليج العربي. واستمر العرب في نقل التوابل بشكل مباشر من الهند وأندونيسيا، ولم تنقطع عمليات تبادل البضائع الهندية مع التجار الأوروبيين في أسواق حلب والقاهرة

(1) راجع: ك. م. بانيكار، آسيا والسيطرة الغربية، مصدر سابق، ص 46.

(2) راجع: عبد الكريم رافق، العرب والعثمانيون، ط1، مكتبة طلس، دمشق 1974، ص 118.

واستنبول وبورصة.

ففي عام 1554 على سبيل المثال، اشترى البنادقة ستة آلاف قنطار من التوابل من الاسكندرية، وبلغت مشترياتهم عام 1560م اثنا عشر ألف قنطار، هي نفس الكمية التي كانوا يشترونها قبل الاختراق البرتغالي⁽¹⁾. وهكذا عاد النشاط التجاري إلى البحر الأحمر والخليج العربي، وراح مسلمو سومطرة يصدرون الفلفل إلى القاهرة ودمشق مباشرة، وأخذت البندقية - بعد أن تيسر لها الريال الإسباني - أن تواصل نقل التوابل من طرابلس الشام، وبירות، فاستوردت بين (1560 و1564م) من التوابل ما معدله 11,700 قنطار في السنة، إذ ارتفع استهلاك أوروبا من التوابل من (17,600) قنطار عام 1500م إلى (27,000) قنطار في السنة من هذه الفترة⁽²⁾. ويشير إيفانوف إلى أنه في الفترة ما بين عامي (1554 و1564م) كانت تُشحن إلى أوروبا عبر سواكن وجدة، وغيرها من مرافئ البحر الأحمر، كميات من التوابل، يتراوح وزنها بين 20 إلى 40 ألف قنطار (مائة كغ) كل عام⁽³⁾.

وقد فرضت الوقائع حالها على البرتغاليين، فأقاموا علاقات تجارية مع التجار المسلمين، واستمر هؤلاء في أعمالهم، في كل أرجاء المحيط الهندي، بعد أن رخص لهم البرتغاليون بذلك، وقد مثل سكان الملايو، ذوو الحنكة التجارية، دوراً هاماً في كل أرجاء الهند الصينية⁽⁴⁾.

(1) راجع: جورج كيرك، موجز تاريخ الشرق الأوسط، مصدر سابق، ص 99. راجع أيضاً: جورج لوفران، تاريخ التجارة، مصدر سابق، ص 78. حيث يقول: «وقد دلت بعض الأعمال، أنه بقي طيلة القرن السادس عشر طريق برية للأفاوية من هرمز (= الخليج) إلى حلب، كما أن صناعة الجوخ بقيت مستمرة».

(2) راجع: أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 231/232. وراجع أيضاً: نيقولا إيفانوف، الفتح العثماني...، مصدر سابق، ص 174.

(3) راجع: روسلان موسينيه، تاريخ الحضارات العام، مجلد رابع، مصدر سابق، ص 609.

(4) راجع: نيقولا إيفانوف، الفتح العثماني...، مصدر سابق، ص 174.

ولعل فرنان بروديل قد أفاض في عرض الوثائق التي تثبت بشكل حاسم، أن طريق التوابل القديمة - المارة في البرزخ العربي - قد عادت إلى كامل نشاطها في الفترة ما بين عامي (1550 و1570م)، وعادت أوروبا من جديد باستثناء البرتغال والإسبان، تتمون بالبهارات المارة بالمشرق العربي.

ويذكر أحد الرحالة الانجليز الذين زاروا البصرة عام 1583: «تصل شهرياً إلى ميناء البصرة سفن مختلفة من هرمز، محملة بجميع أنواع البضائع الهندية، كالتوابل والأدوية، وصبغة النيله والمنسوجات»⁽¹⁾.

وفي مطلع القرن السابع عشر، أصبح استيراد التوابل عن طريق مسالك الشرق العربي - كما يشير روسينييه - أرخص وأقل كلفة من طريق رأس الرجاء الصالح⁽²⁾. فبقي العثمانيون يحتفظون «بدورهم الأول في التجارة بين أوروبا والشرق الأقصى، مزودين الغرب بكميات كبيرة من التوابل، والمخدرات والبلسم، إلى أن استولت هولندا على المحيط الهندي عام 1625»⁽³⁾.

(1) راجع: روسلان موسينييه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص 543.

(2) أحمد محمد عبيد بطي، الصراع البرتغالي العثماني، مصدر سابق، ص 232.

(3) راجع: روسلان موسينييه، تاريخ الحضارات العام، مصدر سابق، ص 610.